

بوصلة الذات

من كتاب

((دع الله يكمل شخصيتك))

الدكتور دان مونتغمري

يوجه يسوع دعوةً إلى كل رجل وامرأة وطفل لكي يشتركوا في ثورة لا مثيل لها، ألا وهي تحويل كل منهم شخصيته الخاصة وتطويرها. لقد أولى يسوع، أكثر من أي شخص آخر، نوعية الحياة الإنسانية اهتماماً بالغاً، بما في ذلك العلاقات بين الرجل والمرأة، ومكانة الطفل التي رفع من شأنها. لقد أيقن بأن الشخصية السليمة توحد الروابط العائلية وتمكّن الإنسان من أن يعمل بمشيئة الله. كما يشدد على أن قوة الروح القدس والتزامنا جانب الحب بشجاعة يسيمان حياتنا بالإبداع والحلق.

ففي حين جعل الفريسيون جلّ تركيزهم، في الحياة الدينية، على الأعمال الخارجية التي تنظمها السنن والشرايع، آمن يسوع بأنه يمكن الإنسان أن يحفظ تلك السنن، من دون أن ينال رضى الله. لذا ركّز اهتمامه على ما سيؤول إليه الإنسان، أكثر مما اهتم بما يقوم به الرجل أو المرأة، وذلك لا لأنه انتقص من قيمة الأعمال، بل لأنه عرف أن مواقفنا الداخلية هي التي تقرر تصرفاتنا. ففي نظر المسيح، إن ما يُرضي الله هو الأعمال الصادرة عن شخصية تغيرت: "فليس للشجرة الطيبة أن تُثمر ثماراً حبيثة، ولا للشجرة الحبيثة أن تُثمر ثماراً طيبة" (متى ٧ / ١٨).

لقد شكّت رسالة المسيح زقاق الخمر القديمة، وهي الديانة الفريسية، وأعطت الخمر الجديدة، حمر الروح القدس. فالروح القدس هو محور الشخصية السليمة، لأنه يتدفق مثل ينبوع في أعماقنا ويملأ حياتنا مفاجآت ومغامرات. سوف أتوسع في كلامي على الروح القدس في الفصل التالي، أما الآن فأبغى أن أبين كيف أن شخصية يسوع تفتح لنا الطريق لنطوّر جماعة تتميز باخية والألفة والوحدة المثينة.

بصفة كوني عالماً نفسياً، أجد نفسي مفتوناً بشخصية يسوع. فهو ما كان متصلباً ولا متطرفاً، بل أظهر الترانأ نَشطاً في التعبير عما في نفسه. فقد أحب حباً كافياً ليحرر امرأة ويجددها داخلياً، بعد أن كانت قد أخذت في زنى وأراد من يتهمها رجماً حتى الموت. وهذا موقف يكشف عن رحمته.

وكان أيضاً جازماً لا يتوانى عن صنع مجلداً من حبال وطرد باعة البقر والغنم والحمام والصيافة من الهيكل. وهذا تصرف يُبرز سُخطه الحق. كما كان ضعيفاً عندما استسلم لأيدي الذين صلبوه وأماتوه ووضعوه في قبر إنسان آخر. وهذه أحداث تبين تواضعه. وأخيراً، كان قوياً في تنصيص مشيئة الأب والقيام من القبر منتصراً على الموت نفسه. وهذه حقيقة تُظهر سيادته على جميع الأمور في الأرض والسماء.

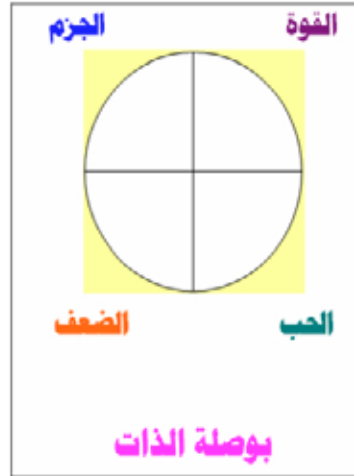
لذا نجد في شخصية يسوع العناصر التي تقوم عليها الشخصية السليمة. فيسوع قد دُعي زهرة الشارون (الحب)، وأسد يهوذا (الجزم)، وحمل الله (الضعف)، وإله السلام (القوة). ففي المسيح نجد تصميم الله للشخصية المتزنة.

بوصلة الذات

نحن في حاجة إلى مثل تلك العناصر التي تتجلى في المسيح لكي نفهم اليوم شخصياتنا. ولكن دعوني الآن أشرح ما الذي أعنيه بقولي "شخصية متزنة". تُشبه بوصلة الذات البوصلة العادية التي تشير إلى الاتجاهات: الشمال والجنوب

والشرق والغرب. وهذه الأقطاب تتوزع حول الدائرة، فيقابل قطب الشمال قطب الجنوب، وقطبُ الشرق قطبُ الغرب.

وعندما تحجب الغيوم السود رؤية الشمس فحاراً والنجوم ليلاً، تبين البوصلة لنا، ما دامت تعمل بانتظام، الطريق الواجب سلوكها. فإن كانت الإبرة تدور طبيعياً وتبين الاتجاهات كما يجب، أمكننا أن نجد طريق بيتنا. لنحاول أن نمثل الذات بدائرة، ونرسم خطين يتقاطعان في وسط بوصلة الذات، يرمزان إلى محوري الشخصية. أما الأقطاب الأربعة الأساسية حول الدائرة، فهي تقوم بدور المرشد الداخلي، ويمكن أن نسميها كما يلي: الحب والجزم والضعف والقوة.



يُعبّر قطبا الحب والجزم عن طريقة شعورنا الأولية بالآخرين، وبين قطبا الضعف والقوة كيف نشعر، على نحو متواصل، بأنفسنا. قال هنري نوين، المتخصص باللاهوت الرعائي، إن الحياة الروحية تقتضي أولاً أن نعي تلك الأقطاب الداخلية التي نعيش في إطارها حالة توتر وتجاذب. لذلك، يقود تفهّمنا هذه الأقطاب/ المفاتيح وضبطنا إياها إلى اتزان شخصيتنا.

قطب الحب

الحب هو أكثر من مجرد شعور، هو التزام من أجل خير الآخرين وخير أنفسنا الأسمى. فعلى ذلك النحو يرتبط الله بالبشرية، ولا ينفك يُلهمنا لكي نرتبط بعضنا ببعض بالطريقة نفسها. وعندما يكون قطب الحب سليماً، نختبر مشاعر الحرارة والحنان والعناية والفرح.

غير أن الكثيرين يُؤثرون تخليص مشاعرهم من الحب خوفاً من سرعة تأثرهم، فيفقدون الثقة بأنفسهم وبالآخرين، ويقسّون قلوبهم، متخذين، في أغلب الأحيان، مواقف دفاعية، وإذ يرفضون الخروج من حصونهم، ينظرون إلى أنفسهم نظرة منحازة تحول دون نموهم.

ذلك بأن الحب يقوم بدور رائد في مسيرتنا لبلوغ الراحة والصدقة والتفاهم. كما أنه يُضفي على الحياة النظارة والنشاط. فعندما يتدفق الحب فينا نشعر باندماجنا في الحياة، فنعبّر عن مخاوفنا وحاجتنا وأحلامنا. وما الحب السليم إلا طريق ذو اتجاهين يسمح لنا بمعالجة جروحنا الآخرين، في حين نعال الشفاء نحن أيضاً. والحب يرتب علينا أن نشعر بتضامنا مع الآخرين عاطفياً وروحياً، فهو بمثابة الدم الذي يسري في الحياة المسيحية والبلسم الشافي في عالم منازع. قال يسوع: "إذا أحب بعضكم بعضاً عرف الناس جميعاً أنكم تلاميذي" (يوحنا ١٣ / ٣٥).

لا يمكن أحداً أن يكون معاقاً حقاً بدون روح حب تتدفق من شخصيته. ولكن إن أسأنا استخدام الحب، نحول إلى فخر مخيف. فليس الحب إذناً يسمح لشخص آخر بأن يدوسنا، مستخفاً بمشاعرنا أو رغباتنا. إنه إذ ذاك مازوشية وتشويه للحب، إذ إننا لا نفكر في أنفسنا إلا القليل فتمكّن الآخريين من إلحاق الظلم بنا، أو نجد أننا في حاجة ماسّة إلى موافقة الآخريين واستحسانهم، فلا نتردد في أن نخط من كرامتنا لبلوغ مآربنا. إن الحب المازوشي يأتي على صحتنا وسعادتنا ونحن نظن أن ذلك يؤول إلى إسعاد إنسان آخر.

في الزواج أو الصداقة، يجلب الحب السليم العطف والتسامح وتقدير الآخر، والقدرة على الغفران وقبول الذات. والنمو في الحب إن هو إلا قول الإنسان: "أنا أقبل"، "أنا أتحمّل"، "أنا أتغذى" و"أنا أستطيع أن أعبر عن عناية لطيفة". ففضيلة العناية تنتج من قطب الحب.

بالإضافة إلى ذلك، يتطلب الحب السليم توازن أقطاب الجزم والقوة والضعف. فعندما نحب بطريقة مفيدة وحكيمة، نرتبط بالآخريين من خلال علاقة متبادلة، فلا نُفَرط في الاستقلال عنهم ولا نبالغ في الائتكال عليهم، بل نشارك معهم من دون حاجة إلى أن نسيطر عليهم أو أن يسيطروا علينا. ولا شك في أن الحب السليم يساعدنا على أن نستمتع وصية يسوع الكبرى لنا: "أحب الرب إلهك بكل قلبك وكل نفسك وكل ذهنك. تلك هي الوصية الكبرى والأولى. والثانية مثلها: أحب قريبك حيك لنفسك" (متى ٢٢ / ٣٧ - ٣٩).

قطب الجزم

يُقابل قطب الحب قطب الجزم أو الغضب الذي لا تقل أهميته العاطفية عن سابقه. فالجزم يساعدنا على أن ندافع عن أنفسنا من دون أن يعترينا قلق غير مبرر. كما يساعدنا على أن نعبر عن أنفسنا بارتياح، ونفاوض في شأن الأمور التي نحتاج إليها، ونمارس حقوقنا المعقولة من دون أن ننكر حقوق الآخريين، وعلى أن نقول "لا" من دون أن نشعر بالذنب. وينطبق الجزم على الظروف العادية جداً. على سبيل المثال، هل نعبر عن مشاعرنا وقيمنا صراحة وصدق، حتى إزاء من يخالفنا الرأي؟ إن الجزم يقوينا لكي نواجه أشد لحظات حياتنا صعوبة من غير أن ينال منا الخوف، فنثبت في المثابرة ولو كنا في وسط الخن. فقد نُضطر، مثلاً، إلى أن نواجه شخصاً تصرف تصرفاً ظالماً أو نقف في وجه وضع شرير. فالجزم يوفر لنا الطاقة التي تجعلنا نتخطى الظروف التي قد تُلحق بنا ضرراً أو توقعنا في شرك، ويعطينا ثبات العزيمة الضروري لكي نعمل بمشيئة الله.

ومن غير المناسب، في نظري، أن يُربط بين قطب الجزم وتوبيخنا الآخريين، وبينه وبين الغضب وفرض طريقتنا أو رأينا. فالبعض أو العدوانية هما تشويه للجزم ونتيجة فقداننا التوازن في الحب. والحقيقة أن مقياس نضوجنا في الجزم هو مدى قدرتنا على أن نثبت حقوقنا ومركزنا، من دون أن نمثل كرهاً وضعيفة ونرفض المغفرة. فالنضوج يعني أن نتخذ موقفاً صريحاً من غير أن نقطع الطريق على كل إمكانيات الحوار والتفاهم، فنعبر عن رأينا، وفي الوقت نفسه، نصغي إلى الآخريين بكل انفتاح وموضوعية. قد يحصل طبعاً أن نشعر بالغضب أو الامتناع، ولكن جزمنا السليم يحثنا على إيجاد طريقة اتصال لينة، فلا نتهجم ولا نقاتل.

ولا شك أن الجزم المناسب يعزز الحب ويخدم العدالة في هذا العالم. فهو يدفعنا إلى أن نناضل في وجه الظلم والاستغلال وكل مظهر من مظاهر الزيف والكذب. وعلى هذا النحو عامل يسوع الصيارفة في الهيكل والفريسيين الذين كانوا أبراراً في نظر أنفسهم.

إن ثَمونا في قطب الجزم يعني قدرة كل واحد على أن يقول: "أنا أعبر عن نفسي"، "أنا أقدر على أن أعترض"، "أنا أستطيع أن أواجه"، و"يمكنني أن أميز بين الأشياء". فكما تتبع الشفقة والحنو من قطب الحب، كذلك تأتي فضيلة الشجاعة ثمرة استخدامنا قطب الجزم استخداماً سليماً.

قطب الضعف:

غالباً ما تنظر ثقافتنا المعاصرة إلى قطب الخوف بعين الازدراء، ونجد الموقف نفسه في أوساط مسيحية، إذ يستعلم الماس في أكثر الأحيان، ولا سيما الرجال منهم، أن يكتبوا الخوف لنلا يظهره، وأن يخوضوا المنافسة من غير أن يُفصحوا عن عوز وعن حاجة إلى ذرف الدموع. ولكن هذا الموقف أبعد ما يكون عن الصواب، ذلك لأنه يُبعد الكثيرين عن التقدم في التواضع الحقيقي.

لا يعني الضعف أن نقتل من اعتبار أنفسنا، ولا أن نحقق دائماً في مساعينا، بل يعني أن نقبل الأوهان التي نشعر بها. فما من أحد يبقى سيّد الأوضاع إلى ما لا نهاية. لذا يترتب علينا أن نقبل الضعف العرضي من غير أن نبجله. علينا أن نقبل حدودنا لكي نتمكن من تحسينها. ولا شك أن الضعف هو الطرق الرئيسي المؤدي إلى الاتكال على الله، لأننا ندعو الله عندئذ، والله يخلصنا. فعندما نعرف بمواطن ضعفنا ونواقصنا نصبح حينها أقوىاء.

قد تصبح الحياة كئيبة في وقت من الأوقات.
ولكن إن بُحنا بحاجتنا إلى الله والأصدقاء،
تحولت العقبات في طريقنا إلى أسباب نمو وشفاء.

إن فصول الضعف التي تتخلل حياتنا هي أزمئة مباركة لأنها تسمح لنا بأن نحلل ذاتنا ونفحص ضمائرنا. هي أزمئة تذكّرنا بأنه لا يجوز لنا أن نجعل أنفسنا في مقام أرفع من مقام الآخرين، ولا أن نمتنع باكتفاء ذاتي، بل علينا أن نرع عنا كل تكبرٍ وغطرسة، فنذكر أن حياتنا لا معنى لها بعيداً عن مشيئة الله.

وفي الحقيقة، ينشأ التجاذب الروحي في شخصيتنا بفضل الضعف، إذ يمكننا أن نضفي حينذاك معنى على كل ما نحتره، حتى لو كنا نعيش في وسط الشرور والألم والموت. فالحياة قد تصبح كئيبة في وقت من الأوقات، ولكن إن بُحنا بحاجتنا إلى الله والأصدقاء، تحولت العقبات في طريقنا إلى أسباب نمو وشفاء، فنستمد بالتالي القوة من الضعف (عبرانيين ١١ / ٣٤).

وثمة بعداً آخر من أبعاد قطب الضعف، وهو أن نقبل القلق وكأنه جزء طبيعي من الوجود الإنساني. فكثير من الناس يشدون نحاشي القلق بأي ثمن، غير أن مسعاهم هذا غير منطقي البتة. فالمطلوب هو أن نتعلم كيف نتعايش مع القلق، لا أن نتهرب منه، فإننا جميعاً نشعر به وبعدم اليقين والعجز.

وعندما نشعر بالضعف، علينا ألا نترك الذعر ينال منا، بل نهدأ بالأحرى مستسلمين لحالتنا، ومتذكّرين بأن الضعف لا بدّ منه للتمتع بشخصية متزنة. فإذا ما تحلينا بالصبر، وجدنا الضعف ينقلب في آخر الأمر إلى قوة وشجاعة. فلنسمع صلاة رينهولد Reinhold Niebuhr: "إلهي، هب لي الصفاء والسكون لأرضي بالأشياء التي لا يسعني أن أغيرها، والجرأة لأغير ما أقدر على تغييره، والحكمة لأدرك الفرق بين الأمرين".

إن قبول ضعفنا بطريقة سليمة يقود كلاً منا إلى أن يقول: "أنا غير كامل"، "أنا أشعر بالوهن"، "أنا أحتاج إلى مساعدة"، و"الطريق إلى القمة تمر بالوادي". فما لا شك فيه أن فضيلة التواضع هي ثمرة قطب الضعف. بيد أن اختبار النواحي الإيجابية في ذلك القطب منوط بآثران أقطاب البوصلة الأخرى.

قطب القوة:

تعبّر القوة عن الجدارة واحترام الذات، وهي، في أبسط الأحوال، ذلك الدليل الباطن على أن الحياة جديرة بأن تُعاش. فالشعور بجدارتنا ليس هو خطيئة ولا تكبراً، واحترام ذاتنا إنما هو شرط لكي نعرف كيف نحترم الآخرين، ومساهمتنا في الحياة لا تتم من دون تحليتنا بالقوة التي تجعلنا مبدعين مجددين، وقادرين على استثمار مواهبنا الفريدة. غالباً ما تسبب الثقافة المعاصرة بتشويه القوة، إذ إنها تؤدي إلى الاعتداد بالنفس والتباهي والاستقلال أو الطموح الأعمى، وها إن الكتاب المقدس يذمنا: "قبل التحطم الكبرياء" (مثل ١٦ / ١٨)، في حين تعني القوة السليمة أن نقوم بما هو في مقدورنا من أجل أنفسنا، طالبين المساعدة إن احتجنا إليها، ومعترفين بأخطائنا متى ارتكبناها، ومسرعين إلى الاعتذار من الآخرين، بل إلى الاهتمام بهم أيضاً، فإن إحدى صفات القوة السليمة هي أن نستخدم قوتنا لأتني بالمنافع على الآخرين، لا أن نطغى عليهم. ونستطيع أن نختبر مقياس نضج قطب القوة عندنا من طرق طرح الأسئلة التالية: هل يمكنني أن أكون كفوفاً من دون أن أصاب بالتكبر؟ هل يمكنني أن أقدر قواي من دون أرى الآخرين أقل جدارة مني؟ هل يمكنني أن أبذل قصارى جهدي، وأطلب المساعدة مع ذلك إن احتجت إليها؟ هل أوظف ثقتي بنفسي في سبيل أن أتعاون مع الآخرين أم لكي أتحمك فيهم؟

يحتاج كل إنسان إلى أن يختار أنه ذو قيمة وكرامة وثقة، كما أنه يحتاج إلى التعبير عن كل ذلك. هنالك، بالطبع، عدة طرق تفضي إلى القوة الحقيقية، ولكن أبسطها تحديد الذات: أنا كائن بشري ذو شأن، لا أحتاج إلى أن أظهر أعظم قيمة من الآخرين كما هم. فإن نحو قطب القوة يعني أن أقول: "أنا كفاء"، "أنا ملائم"، "حياتي ذات قيمة"، و"يمكنني أن أساهم". إن فضيلة التقدير أو الثمين تنشأ من قطب القوة.

ليس الحب أعظم شأنًا من الجزم، وليست القوة أفضل من الضعف، لأن هذه الأقطاب الأربعة تعكس، بكل بساطة، تلك الطاقة التي جعلها الله فينا لنصبح متزنين نشطين. فالحب والجزم والقوة والضعف هي بمثابة خطّي الطول والعرض الآيلين إل حياة سعيدة نفسياً وروحياً.

الحب هو النسمة التي تأتي باللطف والاهتمام في العلاقات.

والجزم يمكننا من الدفاع عن أنفسنا والتعبير عن آرائنا بشجاعة.

والقوة تعكس احترام أنفسنا، وواجبنا وقدرتنا على المساهمة.

والضعف يعبر عن عدم كمالنا ويسبغ على حيلتنا التواضع والتعاطف.

فإن أهملنا واحدة أو أكثر من هذه النقاط الأربع، أعقنا تطور شخصيتنا وجعلناها تشبه قساوة وتحيزاً، في حين أن فقدان المرونة وجماد الشخصية يُفسدان نظرنا إلى الله، وينتقصان من قدرتنا على توطيد الألفة مع الآخرين، وعلى المشاركة في جماعة مُحبة. وإزاء حياة كهذه تفتقر إلى الصدق والحقيقة، يقترح الفيلسوف الكاثوليكي غريسال مارسيل علاجاً ناجعاً يكمن في "فضيلة الانفتاح"^١، الانفتاح على الله وعلى أعماق أنفسنا وعلى النمو الشخصي.

أما الانفتاح إلى الاتزان في الشخصية، فيظهر في أربع نواحي أساسية يتوقف تحديد كل منها على المرحلة التي ترواح فيها الشخصية المتزنة: المبالغة في الحب وتنقلب تبعية، والجزم الخارج عن السيطرة ويتحول إلى عدوانية، والضعف المفرط ويتبدل انسحاباً، والقوة المضخمة وتُترجم سيطرة مُكرهة.

¹ Frederick Copleston, *Contemporary Philosophy*, (New York: Newman Press, 1966), p. 107.

وقد ندور في شراك هذه الميول سنوات وسنوات، ونحن نطلب إلى الله، في الوقت نفسه، أن يحقق مشيئته في حياتنا. غير أن مواقفنا المتصلبة لا تنفك ترتفع عوائق في وجه إرشاداته. سأشرح هذه المواقف المنحازة في الفصل الرابع والسابع، مبيناً ما هو السبيل إلى تميمتها.

وفي الواقع، ثمة سبب مألوف يكمن وراء مراوحتنا في نمط شخصية منحازة، ألا وهو أننا نشأنا عليه منذ طفولتنا. فكثيرات هن السيدات اللواتي يترعن إلى تفضيل قطب الحب، لأن بعضهن وسمن بطابع الخطر المهدد كل تعبير عن قوة أو جزم، واعتبرنه منافياً لطبيعة المرأة أو تصرفاً أنانياً. وكثير هم الرجال الذين يراوحون في قطب الجزم لأن عواطفهم الحساسة كُبت وتعلموا أن يعتمدوا الغضب وسيلة ليشقوا طريقهم. وهنالك الأشخاص الذين ضحى بهم في طفولتهم بوجه من الوجوه، فهم يستقرون غالباً في قطب الضعف، ومشاعر العجز واليأس تملك عليهم، في حين آخرين، ممن أفرط في تدليلهم والإطراء عليهم، شبوا على الاكتفاء الذاتي والترعة إلى الكمال في أعمالهم، فأصبحوا أسرى قطب القوة.

وسيان إن دعونا هذه النواحي المنحازة خطيئة أو تلاعباً، فهي تمثل أساليب عمل جامدة ومبالغ فيها، وموانع تحول دون صدور العفوية المرنة التي تميز الشخصية السليمة. فضلاً عن أنها تأتي لنفسد النظرة السليمة إلى الذات والآخرين والله، موقفة تطور الشخصية وتحولها الروحي. ففوقنا أسرى الشخصية المنحازة يعني بالتالي توقف نمونا، فيصبح للخوف، لا للحب، تأثير يعم مواقفنا وتصرفاتنا.

ولكي أشرح كيف يعمل الخوف ليقبض على صميم الشخص، سأأخذ من الأمية مثلاً، والأمية حيوان صغير وحيد الخلية يتغير شكله باستمرار. فإن وخزنا الأمية تكراراً بدبوس، انكمشت على نفسها وبقيت كذلك حتى زوال الخطر. وعلى هذا النحو، إن هُدد شخص ما نفسياً أو جسدياً، ولا سيما في وقت مبكر من حياته، حين تتكون شخصيته الأساسية، تعلم الابتعاد عن وعيه النفسي والروحي، فيغلق على نفسه متنخذاً وضعاً دفاعياً بدلاً من أن يواجه الواقع بصدق ونشاط.

غير أن مواقف الدفاع عن النفس تشمل أساليب الشخصية المنحازة، وإن هي إلا حلول خاطئة لا تأتي بالخير علينا. فإن نحو كل قطب من الأقطاب الأربعة يكون بتمدده نحو باقي أقطاب البوصلة، بحيث نتوصل تسديجياً إلى اتزان شخصيتنا وعلاقاتنا.

ولما كان الروح القدس يسد خطانا في طريق الكمال، يتغلب الحب فينا على الخوف، والجزم على العجز، ويطرد احترام الذات الخجل خارجاً عنا، وتحورنا الشجاعة من عدم الثقة بدواتنا، فنسترد عافيتنا ونتقدم في بلوغ ذلك الاتزان الذي عرفه المسيح في الحب والجزم والضعف والقوة.

اختبار الفراشة:

كانت أليزابيث في أواخر الثلاثينات من عمرها وأماً لثلاثة أولاد، حين شعرت برغبة باطنية عارمة تحثها على التخصص في إرشاد الزواج والعائلات، فالتحقت بالكلية الكاثوليكية حيث كنت أدرّس علم النفس، وتبعته بعض دروسي. فساعدها هذا على التعمق في كيفية بناء العائلة، وأصبحت عالمة مداواة تحوّر على إتباع حقيقة المسيح في داخلها.

وكانت، بعد مرور سنة على دروسها، قد كتبت ما يلي:

"لا بد لكل من كان السباق في المقارنة بين يرقانة الفراشة والفراشة، والموت والقيامة الحياة القديمة والحياة الجديدة ، أن يكون قد قام بـ"اختبار الفراشة"، وهو اختبار أنجزته بنفسه إلى حد ما، ويبدو لي أن للناس أكثر من جولة معه.

إن التحرر أشبه بعقدة حُلَّت أو بغطاء جرّة أحكم إغلاقه فُكَّ. أنه كمن ينب ببطء في مرج، متناغماً مع إيقاع الحياة. ولكن خير أمثاله هو مثل الفراشة بفضل اختبار الشارقة. كيف بدأت ذلك الاختبار؟ كنت أشبه بيقانة فراشة مسرورة، أعيش عيشة رغد ويسر، لا أحتاج فيها إلى شيء. فزواجي كان موفقاً هنيئاً، وأحوالي المادية جيدة، وعلاقتي بالله علاقة حب. ولكني لم أشعر بالرضى والكفاية. لم أعرف نفسي، ولم أدرك أنني كنت أجهل نفسي، وحتى مشاعري لم تكن خاصتي. ولكي أكتشف حقيقة حالتي، تحتم علي الابتعاد عن جميع أولئك الأشخاص الذين، عن غير قصد، أبقوني يرقانة مدللة، وما وجودي في الكلية الآن إلا نتيجة قراري ذلك.

لقد مرت الأشياء بسرعة في هذه السنة الجامعية، وهذا أمر يربحي. غير أنها كانت سنة شاقّة، مثيرة، مليئة بالجد والكد والفرح أيضاً. تعددت اللقاءات المفيدة في أثنائها، وكذلك الدروس الغنية. إلا أن ثمة أشياء اكتسبت عندي أهمية استثنائية.

ففي فصل الخريف المنصرم، وجّه إلي الدكتور مونتغمري ملاحظة عابرة كادت تحوّل الينبوع إلى فيضان، حين قال: "اليزابيث، أشعر بتوتر كبير عندك. والحقيقة أنني شعرت به منذ أن التقيتك أول مرة". شقّ علي أن أتقبل ملاحظة كهذه، فإن كل من عرفني رأى فيّ دوماً تلك الإنسانية الهادئة المسيطرة على نفسها. كيف تجرّأ أن يوجّه إلي تلك الملاحظة؟

كنت أتبع البرنامج الدراسي بكامله، وفي الوقت نفسه، أوليت زوجي الاهتمام اللازم وقمت بواجباتي المتزلية على أكمل وجه، فأعددت ثلاث وجبات طعام في اليوم، ونظّفت المنزل، وأرسلت ابني إلى دروس البيانو ونشاطات الكشافة، وابنتي إلى التزلج على الجليد ومحلات الحلوى، وبقيت ساهرة على طفلي الصغيرة. آه كم صدق المدرّس، فيا له من توتر كنت أرزح تحته وتحتم عليّ قبوله ومواجهته. وهكذا باشرت سلسلة اكتشافات. ظننت أنني كنت أعيش عيشة هادئة مريحة، فاكشفت أنني كنت في شدّة وتوتر. حسبت أنني كنت منظمّة متكيفة مع الحياة، فإذا بي أدرك أنني كنت أجهل حتى نفسي. تراءى لي أنني كنت أحب، فعلمت كم كنت لا مبالية. اعتقدت أنني كنت اجتماعية، ففطنت بأنني كنت منسحبة من المجتمع. غير أن الإيجابي في اكتشافاتي هو أنني كنت أرى نفسي مغفلة، فإذا بي ذكية قادرة على تحصيل العلم.

لو اعتبرت هذه الأمور في مرحلة مبكرة من حياتي المسيحية، لَبَدْتُ علي غير اتصال بالحياة الروحية. ولكن، قبيل مطلع هذه السنة، اخترت بثقة لا يرقى إليها شك أن الله نفسه هو من هداني وأوصلني إلى ما أنا عليه الآن. فقد بدا لي أن الأمر شارف على النهاية، أو ربما كان بداية عصر جديد أبني فيه حياتي على ما تعلّمته. فالحياة تثريني يوماً بعد يوم، وحيّ لزوجي وأولادي بلغ مبلغاً لم أعرفه من ذي قبل، وانفتاحي على مصادقة أناس تعرفت إليهم حديثاً يكبر ويشتد. وفي المقام الأول، هي راحتي التي توطّدت في علاقتي بالرب. إذ أصبحت صادقة معه. لقد كانت سنة نمو، توصلت فيها إلى اكتشاف قيمتي وقدراتي.

لا شك بأن تيقني بأوضاعي أُلّف القسم الأكبر من المسير، ولعلّ رغبتني في التغيير هي التي جعلتني أنطلق منمسيرتي. فإنا أريد حقاً أن أكون شفافة. وجلّ ما يمكنني أن أقوله الآن هو أن شيئاً عميقاً يحصل في داخلي، أشعر حياله بالرضى والسرور.

لا ريب أن تحوّل الشخصية رحلة تستمر مدى العمر، عبّرت عنها القديسة برناديت فيتر Vetter بقولها: "إن تفتح أبواب جديدة، والتوصّل إلى شيء ما، وإدراك أمر ما، والعوض في الذات، وتطوّر العلاقات... كل ذلك يمثل نقطة وصول ما هي إلا بداية جديدة"¹.

سأين في الفصل التالي كيف يستطيع الروح القدس أن يفيض كثير ارتوازية في صميم شخصياتنا فيحوّلنا.

تمارين

١ راجع حياتك لتحديد أوقاتاً استعملت فيها كل قطب من أقطاب بوصلة الذات استعمالاً سليماً. صفّ في دفتر صلاتك كيف تؤمن هذه الأقطاب نظام تحقّق واتزان داخل شخصيتك. أطلب إلى الله أن يقوّي قطب تجهله حالياً. اقرأ الجمل الواردة أدناه ببطء وصوت عالٍ. هل تعينك شخصياً؟

الحب: "أستطيع أن أسند الآخرين وأسهر عليهم وأتعاطف معهم وأهتم بهم. أنا أحب نفسي. أؤمن بضرورة مساعدة الآخرين وبالوثوق بغرائزي في سبيل وقاية نفسي".

الجزم: "أستطيع أن أعبر عن نفسي سواء وافقني الآخرون على الرأي أو عارضوه. أستطيع أن أرفض مطالب غير منطقية أو غير ملائمة. أستطيع أن أدافع عما أحتاج إليه".

القوة: "عندي الكفاءة اللازمة لمواجهة متطلبات الحياة. أستطيع أن أحصل الكفاءة والثقة في حقول جديدة من خلال الدرس والتمرّس والتضلع. أستطيع أن أعتزّ بما أحسنت القيام به، وأتعلم كل ما يقودني إلى النجاح".

الضعف: "أستطيع أن أشعر بالراحة حيال الحيرة والتردد والقلق التي قد تحصل من حين إلى حين، معتبراً إياها جزء من الوجود الإنساني. أستطيع أن أعني حذردي. أستطيع أن أتواضع مع الآخرين وأنفهمهم عندما يكونون في ضعف".

٢ أتجد صعوبة في قبول إحدى نقاط بوصلة الذات؟ ناقش اكتشافاتك مع صديق يكون موضع ثقتك. إن غياب أحد الأقطاب أو تعطّله قد يعود إلى صدمة أو جرح ناتج عن خبرة سابقة في حياتك. اسع إلى الحصول على مرشد روحي أو عالم نفسي قادر على مساعدتك.

¹ Bernadette Vetter, *My Journey, My Prayer*, (New York: William W. Sadlier, 1977), p.18.